Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 37 No.1 March. 2022

الخبر والخطاب والدلالة في قصة محاسن مكر النساء

News, discourse, and significance in the story of the merits of women's deception

م . د دنيا طالب محمد

Dr. Donia Talib Mohamed

College of Law/University of Thi Qar

معلومات البحث

تاريخ الاستلام : ٢٠٢٠/١/٢

تاريخ قبول النشر : ٢٠٢١/١/٢٤

متوفر على الانترنت : ٢٠٢٢/٣/٢٩

الكلمات المفتاحية : المحاسن والاضداد، مكر النساء، الرجل في نسكه وتقواه

المراسلة :

د دنيا طالب محمد

Abstract

I chose to write this research from the Book of Advances and Oppositions to Al-Jahiz (1), the chapter that talks about the deception of women - they mentioned that Al-Hajjaj bin Yusuf was thinner, one night, so he sent to the son of the village, so he said: Women and their actions) - and on their ability to deceive men with gentle tricks that indicate the virtue of intelligence and breadth of mind. Among the deceitfulness of women is this trick that "Jamila" defrauded from the men who had taken her to herself and asked her for what she could not afford, so she knew how to take her right from them and win the honor of showing her without them.

Key word: deception of women, deceitfulness of women

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 37 No.1 March. 2022

ملخص

اخترت لكتابة هذا البحث من كتاب المحاسن والاضداد للجاحظ (١) ، الفصل الذي يتحدث عن مكر النساء ــ ذكروا أنّ الحجّاج بن يوسف أرق ، ذات ليلة ، فبعث الى ابن القرية ، فقال : (أرقت ، فحدثني حديثا يقصر عليّ طول ليلي ، ولكن من مكر النساء وفعالهن) ــ وعن قدرتهن على الاحتيال على الرجال بحيل لطيفة تدلّ على فضل الذكاء واتساع العقل . ومن بين مكر النساء هذه الحيلة التي احتالتها "جميلة" على الرجال الذين راودوها على نفسها وطلبوا منها ما ليس في مقدورها ،فعرفت كيف تأخذ حقها منهم وتفوز بشرف عرضها دونهم .

مقدمة

يقوم العنوان (محاسن مكر النساء) على ثنائية ضدية هي الحسن والمكر فإذا كانت المحاسن هي ما يستطرف ويستحسن فإن المكر لا يمكن أن يستطرف أو يستحسن إلا في المواضع الموجبة له وفي الظروف الداعية إليه ، فكيف التوفيق بين هذه المتضادين :

يتكّون هذا النص من قصتين : قصة مركزية هي التي رواها ابن القرية وقصة إطار تتقدم القصة المركزية وتعقبها ، وتتبدى هذه القصة الإطار في أرق الحجاج واستدعاء ابن القرية ليحدثه عن مكر النساء وفعالهنّ وهكذا نرى أن القصة المركزية محكومة بهذا الاقتراح الذي اقترحه الحجّاج وكان في قصص النساء شفاء من هذا الأرق الذي ألّم به .

والأرق في معناه الطبيعي هو لحظة ينحبس فيها النوم عن صاحبه وعدم تأتّيه له أو هو خروج عن نمط الحياة العادية ونشاز وكان لا بد من العودة الى نمط الحياة العادية وتجاوز النشاز إذ تدخل وسيلة من الوسائل كي تعيد الأمور الى سالف أمرها ومن ثمّ كان على ابن القرية أن يراعي شيئين متلازمين :

ــ ان يراعي أرق الحجّاج وما هو عليه من ضيق وتأزم ، وقد اقترح الحجّاج عليه الموضوع فكان لا بد أن يلائم بين الموضوع المقترح والحالة النفسية التي عليها الحجّاج .

ــ ان يختار من مكر النساء ما به يستجيب لأفق انتظار الحجّاج فيعجب بالقصّة إعجابا يؤثّر فيه تأثيرا يخرجه من ضيقه ويزيل عنه أرقه .

إن الاختيار صعب ــ ما في ذلك شك ــ ولكنا سنرى إلى أي حدّ سيوفّق ابن القرية فيه ويحقق أفق انتظاره ، ولعله بقدر ما تكون هذه القصّة عجيبة جذابة بخيوطها العديدة ولحظاتها المختلفة يتحقق الخروج من حالة القلق الى السكينة ومن حالة الضيق والانقباض الى حالة السعة والانبساط .

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 37 No.1 March. 2022

أما القصّة المركزية التي أتى بها ابن القرية فهي مجموع الأحداث التي سيسوقها بطريقة ذكية ورأى أن يقيمها على تقابل أساسي بين الدين والدنيا ، أي بين الرجل في نسكه وتقواه وبين المرأة في جمالها وفتنتها ، وسيكون الصراع منصبّا على نزعتين غلابتين في الإنسان الى حدّ التمزّق نزعة الغريزة ونزعة العقل ونحن سنتناول هذه القصّة في مستويات ثلاثة هي الخبر والخطاب والدلالة ، كيف ذلك ؟

أولا ـ الخـــــبر:

(١ ـ ١) يرتكز النص على قصتَين قصة إطار وقصة مركز على النحو التالي :

ــ القصة الإطار وتقوم على مقطعين :

المقطع الأول : أرق الحجاج واقتراح موضوع القصة لإزالة الأرق .

المقطع الثاني : تأثر الحجاج بالقصة واستحسانه لها وزوال أرقه .

ـ القصة المركز وهي القصة المضَمنة وتقوم على اربعة مقاطع كبرى هي :

١ ــ اكتشاف المال

ويحتوي هذا المقطع على خمس جمل قصصية هي :

ـ إيداع المال لدى صديق ناسك ثم موت صاحب المال

ـ افتقار المرأة الى المال بعد وفاة زوجها

ـ خروج الخادمة لبيع الخاتم والتقاؤها بصديق الزوج الراحل

ـ فرح الخادمة والزوجة بمال زوجها المودع وتوقهما اليه

ــ تلكؤ الناسك في تسليم المال وطلبه الوصل منها ورفضها إياه وتقريعه

٢ ـ إبلاغ ظلامتها والبحث عن سند لها

ويحتوي هذا المقطع على اربع جمل قصصية هي :

ـ شكواها الى الملك وعدم الوصول اليه ومنعها الدخول عليه

ـ ذهابها الى الحاجب وطلبه الوصال منها ورفضها له ولطلبه

ـ ذهابها الى صاحب الشرطة وطلبه الوصال منها وانصرافها عنه

ـ ذهابها الى القاضي وطلبه الوصال منها وانصرافها عنه .

٣ ـ احتيالها على أخذ المال

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 37 No.1 March. 2022

ويحتوي هذا المقطع الثالث على اربع جمل قصصية :

ـ صنعها التابوت ودعوة خصومها الى بيتها

ـ مجيء الحاجب اليها وإدخاله التابوت وإقفال الباب دونه

ـ مجيء الناسك اليها واعترافه بمالها

٤ ـ إنصاف الملك لها في استرداد مالها

ويحتوي المقطع الرابع على ثلاث جمل قصصية هي :

ـ ذهابها للملك وإرساله الى الحاجب وصاحب الشرطة والقاضي للمثول بين يديه .

ـ تهديدها للجماعة وإقرارهم بالمال عند الناسك

ـ سؤال الملك عن قصتها وأخذ مالها من الناسك وانصافها منه .

لقد جاءت هذه المقاطع متتابعة تتابعا زمنيا وقام بعضها بسبب من بعض فما كانت القصة لتسرد لولا اقتراح الحجاج لها . وما كان ذهاب المرأة الى الحاجب لولا خيانة الناسك لها وامتناع دخولها على الملك ، وما كان ذهابها الى صاحب الشرطة متظلّمة لولا طمع الحاجب فيها وهكذا دواليك مع كل الشخصيات الأخرى .

وكانت العلاقة التي تقوم عليها هذه المقاطع دائرية قوامها الاعجاب فالمساومة فالرفض سواء مع الناسك أو مع الحاجب أو مع صاحب الشرطة أو مع القاضي وبما أنهم طلبوها فرادى فقد واجهتهم فرادى أول الأمر ثم واجهتهم مجتمعين بين يدي الملك في آخر الأمر .

ولأن غاب الملك في البداية فقد حضر في النهاية وقد لعبت ثنائية الحضور / الغياب للملك دورا كبيرا في مسار القصة وتتابع أحداثها لأن التجاءها الى هؤلاء الرجال إنما كان بسبب عدم قدرتها على الاتصال بالملك وأخيرا ما كان لها أن تفوز بمالها لولا شهادة هؤلاء الرجال بمالها الذي أقرَ به الناسك بلا تلكئ أمام الملك .

وكان المقطع الأول والأخير هما طرفا القصة الإطار التي احتضنت القصة المركزية وحضر الحجاج في كلتيهما بالاقتراح أولا وبالسماع ثانيا وبالانشراح ثالثا .

(١ـ ٢) الشخصيات

إن شخصيات هذه القصة كثيرة ، وقد كان لكل منها دور رئيس فيها وان كان دور المرأة "جميلة" أظهر وأكبر فاكتسبت البطولة بحكم كثافة حضورها والمساحة التي احتلّتها فيها .

١ ـ الزوجة : جميلة : جمعت الى جمالها النسك والذكاء والحيلة وهي موضوع اشتهاء أو عشق من الجميع .

٢ ـ الزوج : ناسك صاحب مال أودع وديعة لدى صديق له ناسك .

٣ ـ الجارية : خادمة الزوجة تقوم بشؤونها وتلّبي طلباتها بوفاء واقتدار .

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 37 No.1 March. 2022

٤ ـ الناسك : عاشق الجمال ، احتال على المال لتحقيق الوصال وكان من اكثر الرجال هياما بها وتلهفا عليها الا ان الزوجة رفضته بعدما اهانته وامتهنته .

٥ ـ الحاجب : عاشق ساومها بالوصال على ضمان المال والزيادة فيه .

٦ ـ صاحب الشرطة : مخادع ساومها بالوصال على ضمان المال واستعادته .

٧ ـ القاضي : عاشق ساومها بالوصال على ضمان والعدل فيه .

٨ ـ النجار : صانع التابوت دون أن يعرف الغاية من صنعه ولا المقصود منه .

٩ ـ الملك : غاب في البداية وحضر في النهاية للشهادة على امرين : أمر جمالها الفاتن وأمر مالها المستحق من الناسك .

١٠ ـ الحجّاج : وهو وال على العراق ، ورغم بذاخة سلطانه وتعدد نسائه ارق واقترح قصة عن حيل النساء ، واذا كان الحجاج رمزا للقوة والسلطان فالزوجة كانت رمزا للحلة والذكاء .

إن العلائق بين هذه الشخصيات ليست من نمط واحد فإذا كانت الجارية والملك من المساعدين حقا على تحقيق غايتها فالرجال الأربعة التي تتابعوا في القصة وساوموها على جمالها ووصالها لم يكونوا الا معرقلين لها عن تحقيق غايتها أو قل بقدر ما كانت الجارية والملك إيجابيين معها كان الرجال جميعهم سلبيين ضدها وكانت هذه العلائق السلبية بين المرأة والرجال يتخللها التوتر والتقريع والرفض.

ولّما تعددت الشخصيات في القصة وتنوعت تعقدت العلاقات وتكثفت وخلقت من التوقعات ما يسبغ عليها كثيرا من الحركة والتشويق وهي الجديرة أن تكون قصة مختلفة المشاهد متعددة الفصول .

ثانيا ـ الخطاب :

استخدام السارد الأنماط الثلاثة في الخطاب وهي السرد والوصف والحوار .

(١ ـ ١) السرد

عمد السارد الى طريقة ابن المقفع إذ لا تأتي القصة إثر القصة على سبيل التوالي وإنما تأتي القصة على اقتراح للموضوع وتحديد نوعه والمقصود منه وهي ان تكون القصة عن النساء وأن تكون دالة على مكر النساء وأن يكون المقصود منها هو إزالة الأرق عن الحجاج والعودة به الى الانبساط والسرور .

وقام الخبر على قصة إطار تحدد المنطلق وتعين المنتهى وعلى قصة اخرى مضمنة هي نتيجة الاقتراح في القصة الإطار وذلك بحشد الاحداث وتوزيع الأدوار وصياغة الأقوال على نحو ما نجد ذلك في كليلة ودمنة إذ قامت الأبواب على مواضيع مقترحة ومقاصد معلنة وجاءت قصصها مضمنا بعضها في بعض لأن الثانية إن هي إلا تفسير للأولى أو حجة من حججها فإذا هي يتعانق بعضها مع بعض وتمتد بالتوالد والتتابع حتى تكون هذه القصص المضمنة لبنات بنيوية لقصة طويلة هي قصة الباب بأكمله ، ويلعب التشويق دوره الكبير في عرضها فما إن تسلمنا الى حدث حتى يتجدد شوقنا الى حدث آخر ، كقصة الجاحظ هذه التي أسلمتنا من الناسك الى الحاجب ومن الحاجب الى صاحب الشرطة ومن صاحب الشرطة الى القاضي ومن القاضي الى الملك لتعود من حيث بدأت دون أن ينقطع أولها بآخرها

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 37 No.1 March. 2022

ودون أن تنفصل عنها إلا لتتصل بها ، ومن شأن هذه التقنية أن تسبغ على القصة صبغة الاتساق والتناسق وعلى المفاجآت طابع الإمكان والاحتمال .

ويستخدم السارد في هذه الخطاب السرد المفرد مع كل شخصية على حدة وكانت للمرأة مع كل شخصية قصتها الخاصة ، ولكن هذه القصص الفردية لم تنفصل عن بعضها بعضا بقدر ما اتصلت وهي إنما اتصلت لتوفر الصراع الدرامي في نفس المرأة ، فهي إذ تعاني الظلم في استرداد حقها تعاني تفسَخ الأخلاق في رجال عصرها وبعد ان كانت طرفا منازعا أضحت موضوع لهذا النزاع الذي تحول من طلب حاجتها المشروعة الى النزاع على ذاتها المخصوصة .

وكان السرد المفرد هو السائد في القصة بأكملها مما مكننا من أن نعيش هذه اللحظات المتوترة التي مرت بها المرأة لحظة بلحظة وكان لكل لحظة مميزاتها ولأن هي تشابهت في أحداثها العامة فقد تنوعت في تفاصيلها الخاصة .

والسارد ـ في الظاهر ـ هو ابن القرية وإن لم يكن المتابع حقا لأحداثها زمن حدوثها وإنما هو السارد عن غيره لها . ولم يكن الجاحظ هو من رواها بحذافيراها عن ابن القرية وإن أوهم بذلك بل لعله هو صائغها الأخير حتى ليمكن القول إن هذه القصة عرفت أشكالا عديدة من الرواية والصياغة حتى بلغتنا في صيغتها النهائية عن طريق الجاحظ .

ولم يستخدم السارد في هذا الخطاب آلتي الاستباق والاسترجاع في الزمن إلا مرة واحدة حين سأل الملك الزوجة عن قصتها فقامت بسرد رجعي استعادت فيه الأحداث برَمتها وربطت النتائج الحاصلة بأسبابها الدافعة.

واعتمد السارد النظرة رغم بأنه العليم بكل شيء في هذه القصة فكان ظاهريا يتابع الأحداث ويسير على ايقاعها فيصفها من الخارج ولا يكان يستبطن نفوس شخصياته إلا قليلا أو ما عبَرت عنه بأنفسها أو ما ظهر من عزمها مثل قوله "وباتت تحتال في استخراج حقها فبعثت الجارية الى نجار فعمل لها تابوتا بثلاث ابواب كل منها مفرد ثم بعثت الجارية الى الحاجب أن يأتيها إذا أصبح والى صاحب الشرطة أن يأتيها ضحوة والى القاضي أن يأتيها إّذا تعالى النهار والى الناسك إذا انتصف النهار"(٢)

ونحن لا نعرف بالتحديد كم دامت الأحداث في الزمن لأن القصة لا تقدم لنا قرائن زمانية ثابتة بل لعلها ان تكون ممعنة في القدم وإن غلفها السارد بغلاف العهد الأسلامي للدولة الأموية بالبصرة وهي الى ان تكون خرافة أو اسطورة أقرب منها أن تكون قصة من الواقع أو خبرا من التاريخ .

وكذلك الأمر مع المكان ، فقد جاء متحولا مع كل تحول زمني للأحداث والشخصيات إلا أنه مكان لا قرائن فيه نصية تعيَنه وإنما هو من المطلق من المكان رغم ما ذكره السارد أنها وقعت في البصرة وإن هو إلا ايهام بواقعيتها لأنها أكدت على مفهوم النسك في الرجال والنساء مما يعود بنا الى بيئة الهند أو فارس القديمة .

ــ ويقدَم السارد القصة بأساليب متنوعة كالتالي :

١ ـ اسلوب غير مباشر محكي في الغالب فيصوغ لنا الأحداث أو يصف الشخصيات على نحو ما يقول "وبعثت الجارية الى الناسك فأقبل الناسك ومعه المال ، فلَما دخل الدار كره أن يدفع المال الى أحد سواها فخرجت فلما نظر الى جمالها وكمالها أخذت بمجامع قلبه وفارقه النهى وذهب عنه الحياء"(٣)

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 37 No.1 March. 2022

٢ ـ اسلوب مباشر يتمثل في الحوار الجاري بين الشخصيات وهو حوار واسع في هذه القصة إذ يجري ثنائيا بين الزوجة وكل رجل على حدة غالبا وقد يمتزج فيه النثر مع الشعر وخاصة عند التعبير عن الصبابة والهوى من ذلك قول الناسك شعرا :

قد سلبت الجسم والقلب معا

وبريت العظم مما تلحظين

فارددي قلب عميد واقبلي

صلة الضعفين مما ترتجين

فأطرقت جميلة لقوله طويلا ثم قالت : ويحك أنسيت المعروف بالنسك المنسوب الى الورع ؟ قال : بلى ولكن نور وجهك سل جسمي فتداركيني بكلمة تقيمين بها أودي فهذا مقام اللائذ بك "(٤)

(١ ـ ٢) ــ الحوار

إن الحوار في هذه القصة جاء ليعزز السرد فعندما يسكت السرد يأتي الحوار ليحل محله ونحن نجده في بداية القصة وفي نهايتها وبالتحديد في المقطع الثاني والمقطع الرابع .

وهو يقوم ف الغالب على حوار جميلة مع الرجال الذين قصدتهم ليحلوا لها مشكلها من جهة او عندما دعتهم اليها لتحل مشكلتها معهم عند تأزم وضعها فحملتهم على الدخول الى التابوت من ابواب مختلفة عازلة حتى لا تؤجج الصراع بينهم عليها .

وههنا ندرك ان الحوار قام بوظائف عديدة منها :

أ ـ وظيفة متابعة السرد والاستمرار فيه وهو لا يعدو في حقيقة الامر أن يكون الا محطات معينة من محطات هذه القصة على اختلاف مراحلها .

ب ـ وظيفة في حبكة القصة من حيث التدرج نحو تأزها ومن حيث التدرج نحو انفراجها .

ج ـ وظيفة في إثبات البينة على حقها أولا بالشهادة التي ادلى بها الناسك عند لقائه بها في أول الامر وثانيا عند طمع الناسك بالفوز بها وفي إثبات الشهادة على حقها عندما أدلى بها الرجال الآخرون عليه وهم بعد في التابوت في آخر الامر .

وبذلك ساهم في سرد مراحل القصة وفي إعطائها وظيفة التفسير والتعليل لأحداثها .

(١ـ ٣) ـ الوصف

إنه يتخلل السرد والحوار وخاصة في التغزّل بجمالها وكمالها بدءا بالناسك وختما بالملك ، وكانت موضع إعجاب الجميع ، وما كان تصرف الرجال على اختلافهم معها هذا التصرف لو لم يكن إغراؤها كبيرا وهذا الوصف يتجاوز

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 37 No.1 March. 2022

التعبير العاطفي عن الهوى الى التصوير الحسّي بمفاتن جمالها وخاصة في قول الناسك مرّة بالشعر ومرّة بالنثر ومنه " إن نور وجهك سلّ جسمي فتداركيني بكلمة تقيمين بها أودي ، فهذا مقام اللائذ بك" وفي قوله ايضا في المرة الثانية " زرتك شوقا الى رؤيتك وحنينا الى قربك " .

واللغة التي صاغ فيها السارد هذه القصة رغم وضوحها في الغالب تتسم بسمات ثلاث :

١ ـ سمة الإيجاز حيث اللفظ بقدر المعنى ، ويتبدّى هذا في قوله " فأنت الحاجب فشكت إليه فأعجب بها إعجابا شديدا وقال : إن لوجهك صورة أدفعها عن هذا ولا يجمل بمثلك الخصومة فهل لك في ضعفي مالك في ستر ورفق : سوءة لأمرأة حرّة تميل الى ريبة "(٥)

٢ ـ سمة الدقة : حيث تتكلم المرأة مع كل شخصية من هذه الشخصيات بالألفاظ التي تقتضيها المعاملة معه ، فمع الناسك قالت : أيها المرائي المخادع اخرج مذموما مدحورا ، ومع الحاجب قالت : سوءة لامرأة حرّة تميل الى ريبة ، ومع صاحب الشرطة و القاضي لم تقل شيئا وكأن صمتها عن الكلام كان أقوى من الكلام ، وكان غضبها على الناسك أكثر من غضبها على سواه فقد رمته أوّل الأمر بالمرائي المخادع ورمته في الأخير بالزائر الجاني لأنها ترى أنّه هو الجاني الأول والسبب المباشر الذي جرّ لها كل هذه الصعوبات والأزمات .

٣ ـ سمة العاطفة من ذلك ألفاظ الجمال والكمال ومفارقة النهي وذهاب الحياء ونور الوجه والإيجاب والنزول عند المسرة والأخذ بالقلب والجنون وقرّة العين والوصال والمضاحكة والملاطفة والحنين الى القرب ومن ذلك أيضا ألفاظ الأخلاق والدين مثل النسك والسخاء والرزق الحلال والورع والخداع والسوءة والظلامة وشاهدي عدل .

٤ـ سمة الإيحاء فتكون الى جانب الدلالة الظاهرة دلالة حافة وخاصة في لفظ "جميلة" بوصفه اسما على علم من النساء ولكن بوصفه علامة على جمال الخلق أو الخُلق والذكاء إذ استطاعت أن تبعث في كيان الرجال قوّة دافعة على الفعل وإن بتجاوز الأخلاق والأعراف أو لفظ "يأتي" بوصفه دالا على المجيء ولكن بوصفه دالا أيضا على الإتيان من موضع الجماع في قولها " فبعثت الى الحاجب أن يأتيها " أو دعي " دعي فأجاب " بوصفها دالة على الاستجابة عموما ولكن بوصفها دالة على الاستجابة لداعي ربّها خصوصا في قولهم " أجاب داعي ربّه " .

وهذا المعجم بسجلّيه العاطفي والأخلاقي خاصة أمعن في الوصف والتصوير وهو يتراوح بين الوصف المادي والتصوير النفسي فكان يتردد بين الظاهر والباطن وبين ما يلاحظ بالبصر وما يحس بالشعور رغم غلبة استخدام المترادفات مثل : الجمال والكمال ، ومثل القلب والجنون ومثل المضاحكة والملاطفة ومثل النهي والحياء وغير ذلك من الألفاظ التي يقصد بها التأثير باللغة فضلا عن التأثير بالأحداث حيث تتم المشاركة الوجدانية بين الباث والمتلقي أو بين السارد والمسرود لهم فيغدو الخيط الرابط بينهم هو هذه المفاجآت غير المنتظرة ، وهي مفاجآت مفعمة بالعجيب والمدهش فضلا عن تلك الألفاظ المتأججة بالأنفعال والمترعة بالوجدان .

ولأن توخّى الخطاب الأنماط الثلاثة وهي السرد والحوار والوصف إلا أن السرد والحوار فيه أظهر مما يطبع القصة بالحركة والتّسارع لأن الوصف من شأنه أن يطبعها بالبطء والتثاقل ولعلّ الموقف الوحيد الذي جاء فيه الوصف خاصة قول السارد " فلّما نظر الى جمالها وكمالها أخذت بمجامع قلبه وفارقه النهى وذهب عنه الحياء" (٦) , بل لعله الموقف الوحيد الذي نجد فيه النظرة من خلف بشكل ظاهر .

ثالثا ـ الدلالة :

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 37 No.1 March. 2022

١ ـ لقد عمد الجاحظ في هذا الكتاب الى إيراد قصص عديدة اهتّم فيها بالمرأة أو بالنساء فتحدّث عن محاسنهنّ وفضل التزوّج منهنّ وعن وفائهن وغدرهنّ وعن محاسن مكرهنّ ومساوئه فكان يقدّم اللوحات المتقابلة والمشاهد المتعاكسة حتى نعرف ما تقوم عليه حقيقة الحياة وطبائع الموجودات من ثنائيات كالخير مقابل الشر والحسن مقابل القبح والكرم مقابل البخل والشجاعة مقابل الجبن ، وإن هي إلا ثنائيات أقام آثاره على جلائها وبيان أن الوجه فيها لا يقوم بنفسه وإنما هو يقوم بضديده ، وهي مقابلات من شأنها أن تحافظ على توازن الحياة وبقاء الوجود .

ومن بين هذه القصص المتقابلة في الأثر ما جرى بعضها بحضور لقمان الذي حكم فيها حكمه العادل وذلك بمقياس الزمن الذي يعيش فيه أما القصة الأولى فقامت على امرأة خبأت عشيقها في الحمل وطلبت من زوجها أن يحمل المتاع فإذا بأثر بلل أحسّ به على ظهره فحّط الحمل وتفقّد البلل ثم فتح المتاع فإذا بغلام يقفز منه ويأخذ في العدو فاحتكم القوم الى لقمان فأمر بأن يعود الغلام الى ما كان فيه في الحمل ويربط بعنق المرأة ثم تركهما حتى ماتا (٧).

وأما الثانية فقد اتفقت امرأة مع عشيقها أن تتماوت وأن يضعوا عليها الصخر حتى يأتي هو بعد ذلك لاستخراجها ـ وقد ظنّها اهلها ماتت ــ فيأخذها معه ويكملان بقية حياتهما معا . ولن الزوج والأبناء ما لبثوا أن تعرفوا عليها فشكوا أمرها الى لقمان فأمر أن تحفر لها حفرة عميقة على نحو ما فعلت لنفسها أول الأمر وأن توضع فيها حتى ماتت أما عشيقها فأمر بأن تقطع ثنياه من ذكره حتى مات(٨) .

إن هاتين القصتين تدوران حول المرأة العاشقة التي تعاملت مع عشيقها بطريقة بدائية فكان ما صنعته الوان الحيلة قد عاد عليها بالوبال حتى حكم عليها بالموت بنفس الطريقة التي احتالت بها ليكون فيها منجاتها وقد كان لقمان هو الحاكم العدل في القصة الأولى والثانية وجرت أحداثها على مرأى ومسمع منه مما يدلّ على أنه كان شاهدا عليهما في كلّ ما صنعتاه ولا حاجة له باستدعاء شاهدي عدل لينظر فيهما بل كان هو الشاهد وهو الحكم وهو المنفذ وقد تجمعت في يده كل السلط لأجراء حكمه وإنجاز أمره .

كما أختار الجاحظ ايضا للدلالة على محاسن مكر النساء القصص العجيبة من دائرة الملوك الذين يستخدمون المرأة وسيلة من وسائل القضاء على المنافسين والأعداء وتعود في مجملها الى تاريخ العرب المتاخمين للفرس ، ومن أهّم هؤلاء النساء شيرين زوجة أبرويز وقد دعاها ربيبها بعد قتل أبيه أن تستجيب لرغباته فامتنعت عليه وأبت إلا أن تطالبه برد أموالها والتبرئ مما قذفها به أمام كبرائه وأن يفتح لها الناس حيث دفن زوجها وكانت قد عمدت الى سمّ فشربته وماتت وهي على قبر زوجها وكذلك الأمر مع الزباء التي ورثت الملك بعد مقتل عمها ، وقد قتله جذيمة الأبرش الذي طلب من الزباء أن تصله فأظهرت الموافقة أول الأمر وطلبت منه المجيء ، فما كان منه إلا أن قصدها في مملكتها وكان يظنّ أنها ستلقاه بالترحال والتبجيل إلا أنها احتالت عليه فأدخلته قصرها وأمرت الجواري بالتراكم عليه حتى قتلنه ولكن الزباء ما لبثت طويلا حتى وقعت في غرام غريمها الذي أظهر لها التودّد والملاطفة فأرادت التزوّج منه فطلب منها السماح له بالسفر لأموال له في الخارج عليه أن يستجلبها فسمحت له بذلك إلا أنه احتال عليها بحيلة الجنود الذين حملتهم الجمال على أنها هدايا ومتاع آثرها وأمر بدخولها القصر ، فلّما حطوا الأحمال في قصرها خرج الرجال من الأحمال وقتلوا جميع من في القصر وهمّ عمرو بقتل الزباء إلا أنها مصّت فصّا من فصوصها وكان

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 37 No.1 March. 2022

مسموما وقالت " بيدي يا عمرو ولا بيدي العبد " ومع ذلك عمد عمرو الى ضربها بالسيف والتمثيل بها وهو يقول شعرا :

ولو رأوني وسيفي يوم أدخله في جوف زباء ماتوا كلهم فرحا

هكذا استطاع الجاحظ أن يصوّر النساء في مكرهنّ ما قبح منه وساء مخرجه وما حسن منه ونجح مخرجه ، ولا نخال أنه يقصد إدهاشنا بهذه القصص عن النساء بقدر ما يقصد إمتاعنا بمضمونها .

٢ ـ ونحن نجد ما يتفق مع هذه القصة في التراث العربي وههنا نتساءل عن وجوه التقاطع بينها لا من خلال ما أخذت القصة الثانية عن القصة الأولى حتى تتماهى معها ولكن من خلال الاختلاف عنها في اساس موضوعها ومجرى أحداثها فإذا التناص لا يكمن في التواصل اللغوي والتوافق الفني بقدر ما يكمن في تشابه الرؤية الى الحياة والوجود مهما اختلف الزمان وتعدد المكان .

وفي قصة " زوجة الأعرابي ومعاوية " في أخبار النساء لأبن قيم الجوزية ما يدل على هذا التقاطع بين القصتين ، فقد تزوّجت المرأة من أعرابي مثلها ، فلّما رآها مروان بن الحكم ـ وقد جاءه زوجها يتظلّم له ـ أعجب بها وبجمالها فطلّقها من زوجها وتزوّجها عنه كرها ، فشكاه الرجل الى معاوية بن ابي سفيان فنالت من الخليفة إعجابه أيضا وطلب من زوجها أن يتزوجها بدلا عنه مقابل مال يأخذه فرفض وطلب من المرأة أن تبتّ في الأمر فإن هي فضّلت زوجها خرجت معه وأن هي فضّلت المال والجاه طلّقته وتزوّجت معاوية إلا أنها فضّلت زوجها البدوي على سواه رغم فقره وقلّة جاهه .

وهنا يتجلّى هذا التقاطع بين القصتين ، فإذا قامت الأولى على امرأة مدنية فقد قامت الثانية على امرأة بدوية ، وإذا كانت المرأة الأولى قد راودها رجال أربعة فقد راود هذه البدوية رجلان لهما كل الجاه والسلطان وهما الأمير والخليفة وإذا فضلت الأولى زوجها المتوفى على أي أحد سواه وظلّت له وفيّة مخلصة فقد فضلت المرأة الثانية زوجها رغم بداوته وفقره وكان الوفاء من أكبر الأسباب في هذا التفضيل والأختيار فقالت " إن لي معه صحبة قديمة لا تنسى ومحبّة لا تبلى وأنا أحق بمن صبر معه في الضراء كما تنّعمت معه في السراء "(٩)

وهذه القصص تتفق في مسيرة أحداثها كما تتفق في النتائج التي وصلت إليها ولكنها تختلف بعد ذلك في شخصيّاتها ومراتبهم الأجتماعية ووظائفهم السياسية . وهي تختلف بالخصوص في كيفيّات طلباتهم والتعبير عن رغباتهم ، ولعلّ المرأة التي تكون موضوع اشتهاء الرجال في التراث متواترة مما يدلّ على قيمة الجمال وإغرائه سواء كان هذا في الرجال مع يوسف بن يعقوب وفضلون العابد أو في النساء مع جميلة امرأة الناسك هذه وسعدى امرأة الأعرابي ولولا شيء من العفة والورع لعرف هؤلاء النساء أنواعا من الرجال ولما بقين مخلصات وفيّات لأحد منهم .

وبهذا الاعتبار فقصص النساء في التراث حسب المنهج السيميائي آخذ بعضه من بعض ودال بعضه على بعض فكأن قصّة هاتين المرأتين قصة واحدة وغيرهما كثير بل لعلّ قصص النساء قصّة مفتوحة قابلة للزيادة والتطوير وكأن كتابتها لم تستكمل ولا انتهت بعد .

٣ ـ ولقد قدمت هذه القصة لشفاء وال خطير من سهاده وأرقه وكان للوالي وللملك دور فيها ، فالأول بالإنصات والدهشة ثم بالإعجاب والموافقة بقوله "لله درّ ما أحسن ما احتالت لاستخراج حقها " وأما الثاني فقد شاهد حيلتها وعاين نتائجها فضمن لها حقها لولا أن رأى العدل فيه فكان أن ناصرها من حيث يناصر العدل ويسهم في إقراره .

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 37 No.1 March. 2022

وقد تحوّل الناسك في القصّة من متمسّك بالدين الى متعلّق بالدنيا وانتقل الحاجب من مناصر لحقوق الناس إلى مستأثر بضعف وضعها وحاجتها إليه وتحوّل صاحب الشرطة من المطالبة بشاهدي عدل على مالها الى تمكينها من حقها عند الرضى به لا بقوة القانون بل بقوة السلطان وتحوّل القاضي من حريص على ردّ الحقوق الشرعية إلى طلب الوصال منها وإغنائها الدهر ولم يكن الرجال الثلاثة قد يئسوا مع ذلك من وصالها فاستجابوا لها جميعا حين دعتهم الى بيتها ولكنّها لم تدعهم لتمكنّهم من رغباتهم بل لتتمكّن من تنفيذ رغباتها فيهم فكان أن أدخلتهم التابوت جميعا واحدا بعد واحد حتى أقرّوا

فأخرجتهم لا لينعموا بحرية الحياة بل ليقفوا بين يدي السلطان ويقاضيهم على خبث مقاصدهم في إنصافها من ظلم الناسك فزادوها ظلما وتعسّفا فيه ولئن سكت النص عنهم ـ وقد بلغوا هذه النقطة القصوى في مسيرة القصة ـ فللقارئ أو المتلقي أن يذهب إلى نهاية القصة ويتخيّل لها من الأحداث الأخرى ما يمكن أن يتخيّل . فإذا بها لا تقف عند حدود الملفوظ بل لتتجاوزه إلى حدود أبعد هي حدود المحتمل والمتوقّع فيكون للنص امتدادات على مستويين على مستوى القصة ذاتها والزيادة في أحداثها والوصول بها إلى أقصى درجاتها من التشعّب والتفصيل وعلى مستوى النظر في الحيلة وإمكانية وقوعها واحتمال حصولها في واقع الناس والجماعة وإذا بها لا تسرد الأحداث ولا تقرّر واقعا بل تتخيّل أحداثا أخرى وتصنع واقعا جديد فتكون مشّوقة بأحداثها التي تصاغ منها وبالشخصيات النموذجية التي تعتمد عليها وبنتائجها المؤثرة التي تنتهي إليها وكلّما كانت القصّة نموذجية بنوعية شخصياتها وطابع أحداثها وخصوصية نتائجها كانت أقدر عل تبليغ الحكمة بإنارة العقول وتهذيب النفوس وتقويم السلوك .

٤ ـ لعل شعريّة هذه القصّة أن تتمثل عندنا فوق وظيفتها الجمالية وأدائها الفني في بطولة هذه المرأة التي أخلصت لدينها وأخلصت لزوجها وحاولت ان تستردّ مالها أولّ الأمر بالطرق المشروعة ولكنها لم تلق أذنا صاغية إذ بعد أن كانت ذاتا تطالب بالمال من الرجال أصبحت موضوع اشتهاء لهؤلاء الرجال فظلوا يراهنون عليها جميعا وعلى اكتسابها والفوز بجمالها وهنا تظهر رغبتين(١٠):

١ ـ رغبة لا تولد الصراع لأنه لا وجود لاحتكاك مباشر بين النموذج والمحاكي .

٢ ـ رغبة تولد الصراع لأنها من حاجات المنافس مباشرة ، وهي الرغبة مثلا في نفس المرأة أو في نفس الغذاء أو في نفس الأشياء أليس كذلك ؟ لذلك كله احتالت عليهم بحيلتها التي نصبتها لهم حتّى يكفّوا عن التنافس بينهم الصّراع على ذاتها لأن التنافس المتولد عن طريق المحاكاة لمرغوب واحد سيغدو خالقا للصراع والعنف ، ونحن إنما ندهش من هذه الحيلة العجيبة التي اهتدت إليها ، ولم تكن هذه الحيلة عجيبة لو لم تكن القصّة عجيبة وكانت غرابة الوسيلة المتوخاة فيها من غرابة القصة التي جرت فيها .

وبعد فنحن لا نستطيع أن ننكر الأزمة التي أزمتها المرأة وانواع الصراع التي عانتها في نفسها بين دافعين غلابين من جهة وبينها وبين هؤلاء الرجال الذين يمثلون السلطان والنفوذ من جهة اخرى فكان صراعها مع سلطة السياسة في الحاجب ومع سلطة الدين في الناسك ، وسلطة القاضي في القضاء ، ورغم ما ترمز اليه هذه السلطات من مظاهر القوة المشبوهة في المجتمع لغلبة المراوغة والاحتيال عليها ولانفصام ظاهرها عن باطنها ، متفقة أو تكاد على تغليب سلطان الشهوة على سلطان العقل وسلطان الغريزة على سلطان الدين وكانت هذه المرأة بحيلتها التي أوقعتهم في الهزيمة الطف ذكاء واعزّ منالا من الرجال على كثرتهم . والجاحظ إنما يعبّر عن إعجابه بهذه البطولات النسائية التي التقط لنا قصصها أو نوادرها في المحاسن والأضداد وفي البخلاء والحيوان وغيرها من الآثار وكان مناصرا

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 37 No.1 March. 2022

خاصّة للمرأة الذكية الحازمة التي تقتدر على تجاوز الأزمات وتحقيق الرغبات مما يجعلنا ندرك المفارقة البالغة أحيانا بين السلطان في عدله وإنصافه وبين ممثلي السلطان وأعوانه في عدم تورّعهم عن اقتناص الفرص وترهيب النفوس لأرضاء شهواتهم وتحقيق نزواتهم . وكان لا بد من تدخل المؤسسة الرسمية لإيقاف هذا العنف(١١). فكان أن لجأت الى الملك في نهاية المطاف للانتصاف منهم واسترداد حقها واسترجاع مالها .

الخاتمة

بالنظر الى فهرس كتاب المحاسن والأضداد نجد أن المحاسن تفوق المساوئ إذ تحدّث عن محاسن الكتابة والكتب ومحاسن المخاطبات والمكاتبات ومحاسن الجواب وكتمان السر ومحاسن المشورة والشكر ومحاسن الصدق والعفو ومحاسن المودة والوفاء ومحاسن الشجاعة وحب الوطن ومحاسن الثقة بالله وطلب الرزق ومحاسن فضل الدنيا والزهد وحاسن النساء والتزويج وحاسن وفاء النساء ومكرهنّ . أما المساوئ التي تحدث عنها الجاحظ فهي على نقيض المحاسن ومنها مساوئ اللحن في اللغة ومساوئ البخل ومساوئ غدر النساء ومكرهن فضلا عن مساوئ النساء النواشز والمطلقات بذلك تكون النسبة بين المحاسن والمساوئ حوالي ٢٢ من ٦ مما يدلّ على أن المحاسن استأثرت باهتمامه أكثر من سواها وهي أعمق في الدلالة على التنويه بالعقل وفضل استخدامه .

والجاحظ في حديثه عن النساء يكثر من الاستشهاد بأيمة العلماء والصالحين كما يورد القصص التي رويت عنهن والأحداث التي جرت لهن ؛ إذ يعبّر عن إعجابه بهذه البطولات النسائية التي التقط لنا قصصها أو نوادرها في المحاسن والأضداد في البخلاء والحيوان وغيرها من الآثار وكان مناصرا خاصّة للمرأة الذكية الحازمة التي تقتدر على تجاوز الأزمات وتحقيق الرغبات مما يجعلنا ندرك المفارقة البالغة أحيانا بين السلطان في عدله وإنصافه وبين ممثلي السلطان وأعوانه في عدم تورّعهم عن اقتناص الفرص وترهيب النفوس لأرضاء شهواتهم وتحقيق نزواتهم . وكان لا بد من تدخل المؤسسة الرسمية لإيقاف هذا العنف . فكان أن لجأت الى الملك في نهاية المطاف للانتصاف منهم واسترداد حقها واسترجاع مالها .

الهوامش

١. كتاب المحاسن والأضداد هو كتاب منسوب للجاحظ ، وقد اعتمدنا على الموجز منه المطبوع بمصر عن دار الهلال سنة ١٩٧٥

٢. .المحاسن والأضداد : ١٧١

٣. المحاسن والأضداد : ١٧٠

٤. المحاسن والأضداد : ١٧٠

٥. المحاسن والأضداد: ١٧٠

٦. المحاسن والأضداد:٨١

٧. ينظر : كتاب الحيوان : ٣ / ٧٨

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 37 No.1 March. 2022

٨. ينظر : كتاب الحيوان : ٣ / ١٠٨

٩. اخبار النساء : ٢٠٠ . وتجد هذه القصة نفسها في "الاحتراز من مكائد النسوان" لعلي الأبوصيري بن البتنوني (ت ٩٠٠ هـ) تحقيق : محمد التمونجي ، دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع في طبعته الثنية ، بيروت ـ لبنان ١٩٨٩ : ١٩٥ ـ ٢٠١

١٠. بنية النص السردي ، من منظور النقد الأدبي :٦٤.

١١. ينظر : بنية النص السردي ، من منظور النقد الأدبي : ٤٥

المصادر

ـ الاحتراز من مكائد النسوان" لعلي الأبوصيري بن البتنوني (ت ٩٠٠ هـ) تحقيق : محمد التمونجي ، دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع في طبعته الثنية ، بيروت ـ لبنان ١٩٨٩

ـ اخبار النساء ـ لابن قيم الجوزية ، تحقيق : نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٨٥

ـ بنية النص السردي ، من منظور النقد الأدبي ، د. حميد الحمداني ، ط٢ ، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ـ الدار البيضاء ، ١٩٩٣م .

ـ كتاب الحيوان ـ للجاحظ ، تحقيق : عبد السلام هارون ، مصطفى البابي الحلبي ، ط٢ ، ١٩٦٥

ـ موجز كتاب المحاسن والأضداد للجاحظ ، مؤسسة دار الهلال ، مصر ، ١٩٧٥

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 37 No.1 March. 2022

References

1- Caution from the machinations of women" by Ali Al-Abusiri Ibn Al-Batonuni (d. 900 A.H.) Investigated by: Muhammad Al-Tamunji, Amwaj House for Printing, Publishing and Distribution in its second edition, Beirut - Lebanon 1989

2- Women's News - by Ibn Qayyim al-Jawziyya, achieved by: Nizar Rida, Al-Hayat Library House, 1985

3- The structure of the narrative text, from the perspective of literary criticism, Dr. Hamid Al-Hamdani, 2nd floor, Arab Cultural Center for Printing, Publishing and Distribution, Beirut - Casablanca, 1993.

4- The Animal Book by Al-Jahiz, investigated by: Abd al-Salam Haroun, Mustafa al-Babi al-Halabi, 2nd edition, 1965

5- Summary of the Book of Advantages and Contradictions by Al-Jahiz, Dar Al-Hilal Foundation, Egypt, 1975